من قصص القرآن

(٢)

قصة ابني آدم

تأليف

مصطفى بن العدوى

مكتبة مكة

طنطا ٠٤٠/٣٣٤٥٧٤٥ ـ ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣


مِنْ قَصَصِ القُرْآنِ
قصة
ابني آدم
تأليف
مصطفى بن العدوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد،

فهذه «قصة ابني آدم» نقدمها لإخواننا المسلمين ولغير المسلمين أيضًا ضمن سلسلة **«قصص القرآن»** التي نصدرها تباعًا مع بيان ما فيها من العِبر والحِكَم، فبمثل هذه القصص تطمئن القلوب، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هُود: الآية ١٢٠] وبمثلها يحدث الاعتبار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يُوسُف: الآية ١١١].

فإلى هذه القصة وبيان ما فيها، سائلًا ربي تبارك وتعالى التوفيق والسداد، فالتوفيق بالله وحده، وهو

المستعان وصل اللهم على نبينا محمد وسلم.

كتبه
أبو عبد الله مصطفى بن العدوي شلباية
منية سمنود - أجا - دقهلية

نقول وبالله التوفيق:

* إن هذه القصة أو ذاك النبأ يعالج أمرًا، بل أمورًا ويُحذِّر أشدَّ التحذير من جملةٍ من الأدواء.

* إن هذا النبأ يُنبئ عن داءِ الحسد ويُوضح سوءَ مغبتِهِ ووخيم عاقبته.

* إن هذه القصة تُحذِّر من القتل وتُشير إلى خسران القتلة وندمهم حيث لا يكاد الندم ينفع.

* إن هذا النبأ يُحذر مِن سنِّ السنن السيئة، وابتداع البدع وإحداث المحدثات من الأمور.

* ثم إن هذه القصة تشير إلى تذكير المعتدين، تذكير الأشرار، تذكيرهم بالله وبأليم عقابه، وتُبيِّن في ذات الوقت أن الغواة الأشقياء لا تنفعهم الذكرى، فمن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا.

* إنها تشير إلى فضل التقوى ومنزلتها السامية،

وكيف وأن الله يتقبل أهلها ويتقبل منهم.

* إن هذا النبأ يحمل مواساةً للمظلومين وتسرية عنهم.

فإلى هذا النبأ فبِهِ ندَّكر ومنه نعتبر، إذ الله قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يُوسُف: الآية ١١١] فإلى أولي الألباب يُساق هذا النبأ.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ

أَخِيِّ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة: الآيات ٢٧-٣٢].

يقول الله تعالى آمرًا نبيه ﷺ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على هؤلاء اليهود المجاورين لك والمحيطين بك.

* اتْلُ على هؤلاء اليهود الناكثين للعهود الناقضين للمواثيق، أُتْلُ على هؤلاء الذين تصدر منهم الخيانةُ تلو الخيانةِ والغدر بعد الغدر.

* اتل على هؤلاءِ وعلى غيرِهِم من النصارى والمشركين. واتلُ كذلك على أصحابك من المؤمنين والمسلمين.

* بل واتل على الجميع، وذكِّر الجميع وحذِّر الجميع إذ الله قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٩].

* اتل عليهم ﴿نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾

اقصص عليهم خبر ابْنَيْ آدم، وهم ابناه لصلبه(١) وفي عهْدِه وزمانه.

أمَّا عن اسمهما فلم يرد اسمهما في الكتاب ولا في السنة بسندٍ صحيح فيما علمت.

إلا أن جمهور المفسرين - أعني: أكثرهم - على أن المقتولَ اسمه هابيلُ، والقاتلَ اسمه قابيلُ.

فاقصص هذا النبأ ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ بالصِّدقِ الذي لا كَذِبَ

(١) وهذا رأي أكثر العلماء، وذلك لقول النبي ﷺ: «**لا تقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ منها؛ ذلك لأنه أولُ من سنَّ القتل**».
ومما يتأيد به ذلك أيضًا: أن ابن آدم القاتل لم يكن يعرف الدفن حتى بعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه.

فيه، وباليقين الذي ليس معه شكٌّ.

اقصص عليهم نبأ ابني آدم ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾

لقد قرَّب كل منهما قربانًا يتقرب به لربه سبحانه وتعالى!

أما لماذا قرَّبا القُربان؟

فالله أعلم لماذا قربا القُربان، فلم يرد لذلك سببٌ واضح في الكتاب أو السُّنة.

أما أهل العلم، فبعضهم قد قال[١]: إن الله أمرهما بذلك.

* وقال آخرون: إنهما قربا قربانًا يقوم مقامَ الصدقة لكون الصدقة لم تكن موجودةً في زمانهما لعدم وجود من يقبلها.

* وقال غيرهم من أهل العلم: إن كلًّا منهما تقرب

(١) ولعلهم أخذوا ذلك من الإسرائليات التي لا تصدق ولا تُكذب.

إلى الله بقربان كي يُفصل بينهما في نزاعٍ قد دار بينهما، ألا وهو أمرُ زواج أحدهما بأخت الآخر (أعني التي هي توأم للآخر) وكان التقريب بأمر أبيهما آدم عليه السلام.

* وهناك أقوالٌ أُخر ليس عليها دليلٌ ولا تستند إلى مستندٍ صحيح.

* وقد أورد المفسرون في هذا الصدد آثارًا لا يصح منها شيءٌ عن رسول الله ﷺ.

وأيضًا روى الطبري[1] بإسناد ضعيف عن ابن عباس وعن ابن مسعود وعن ناسٍ من أصحاب النبي ﷺ: وكان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن، جاريةَ هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن، غلامَ هذا البطن الآخر. حتى ولد له ابنان يقال لهما: قابيل وهابيل. وكان قابيل

(١) الطبري (أثر ١١٧١٥).

صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضَرْعٍ. وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أختَ هابيل. وإنَّ هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل. فأبى عليه وقال: هي أختي، ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوَّجها، فأمره أبوه أن يزوِّجها هابيل، فأبى. وإنهما قربا قربانًا إلى الله أيُّهما أحق بالجارية، كان آدم يومئذ قد غاب عنهما إلى مكة ينظر إليها، قال الله عز ذكره لِآدم: يا آدمُ، هل تعلم أن لي بيتًا في الأرض؟ قال: اللهم لا، قال: فإن لي بيتًا بمكة فأتِه. فقال آدم للسماء: «احفظي ولدي بالأمانة»، فأبت. وقال للأرض، فأبت. وقال للجبال فأبت. وقال لقابيل، فقال: نعم، تذهب وترجع وتجدُ أهلك كما يسرُّكَ. فلما انطلق آدم، قربا قربانًا، وكان قابيل يفخر عليه فقال: أنا أحق بها منك، هي أختي، وأنا أكبر منك، وأنا وصيُّ والدي فلما قرَّبا، قرب هابيل جَذَعة سمينة،

وقرَّب قابيل حُزمة سنبل، فوجد فيها سنبلةً عظيمة، ففركهَا فأكلها. فنزلت النار فأكلت قربانَ هابيلَ، وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي! فقال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

هذا، **وقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله** في فتح الباري[١]: وذكر السدي في تفسيره عن مشايخه بأسانيده أن سبب قتل قابيل لأخيه هابيل أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن من ولده بأنثى الأخرى، وإن أخت قابيل كانت أحسن من أخت هابيل فأراد قابيل أن يستأثر بأخته فمنعه آدم، فلما ألَحَّ عليه أمرهما أن يُقربا قربانًا فقرَّب قابيل حزمةً من زرع وكان صاحب زرع، وقرب هابيل جذعةً سمينة وكان صاحب مواشي فنزلت نار فأكلت قربان هابيل دون قابيل وكان ذلك سبب الشر بينهما.

(١) فتح الباري (٦/٣٦٩)، وكأن ذلك - بل هو كذلك مستلٌّ من الأثر السابق فهو من طريق السدي، وكما بينا فالأثر ضعيف.

قال الحافظ: وهذا هو المشهور.

قلت (مصطفى): وبين السديِّ وحدوث القصة أزمانٌ لا يعلم مداها إلا الله، ومثل هذا يحتاج إلى دليل من الكتاب أو السنة، وليس ثَمَّ دليل من كتاب ولا سنة، فالإمساك عنه أولى، وإنما ذكرناه لكثرة من ذكروه.

هذا، وقد يتساءلُ متسائلٌ فيقول، وكيف كانت القرابين تتقبل؟!

أي كيف يُعرف أن القربان قد تقبَّلَهُ الله؟

* وجوابه أنَّ ذلك كان يُعرف بنارٍ تنزل من السماء تأكل القربان المُتقبل، فحينئذٍ كان يُعرف أن الله تقبَّل القُربان!! هذا الظاهر، والله أعلم، وذلك كان في بني إسرائيل أيضًا فقد كانت نارٌ تنزل تأكل القرابين المتقبلة، فيُعلم أن الله تقبلها.

قال الله سبحانه وتعالى في شأن اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٨٣﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٣]

وفي الصحيحين[١] من حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: «غزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ[٢]، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، وَلَمَّا يَبْنِ، وَلَا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا، وَلَمَّا يَرْفَعْ سُقُفَهَا، وَلَا آخَرُ قَدِ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ[٣]، وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلَادَهَا، قَالَ: فَغَزَا. فَأَدْنَى لِلْقَرْيَةِ[٤] حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: أَنْتِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا

(١) البخاري (حديث ٣١٢٤)، ومسلم (حديث ١٧٤٧) واللفظ له.

(٢) يعني ملك فرجها بعقد الزواج.

(٣) هي الحوامل من الإبل.

(٤) أي حان وقت فتحها.

مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا، فَحُبِسَتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالَ: فَجَمَعُوا مَا غَنِمُوا، فَأَقْبَلَتِ النَّارُ لِتَأْكُلَهُ، فَأَبَتْ أَنْ تَطْعَمَهُ، فَقَالَ: فِيكُمْ غُلُولٌ، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَبَايَعُوهُ، فَلَصِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَبَايَعَتْهُ، قَالَ: فَلَصِقَتْ بِيَدِ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، أَنْتُمْ غَلَلْتُمْ، قَالَ: فَأَخْرَجُوا لَهُ مِثْلَ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَوَضَعُوهُ فِي الْمَالِ وَهُوَ بِالصَّعِيدِ[1]، فَأَقْبَلَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ، فَلَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَطَيَّبَهَا[2] لَنَا».

* **ولسائلٍ أن يسأل** أيضًا فيقول: ما القربان الذي تقرب به كلٌّ منهما؟

وجواب ذلك أيضًا: الله أعلم ما نوع القربان الذي

---

(١) الصعيد وجه الأرض، وما علا منها.

(٢) أي جعلها لنا حلالًا.

تَقرَّبا به، فلم يرد لنا وصفه في كتاب الله عز وجل، ولا في خبرٍ ثابت عن رسول الله ﷺ.

وقد تكلم بعض العلماء في ذلك ووصفوا القربان ولعلهم أخذوا ذلك من الروايات الإسرائيلية التي تُنقل عن بني إسرائيل وتؤخذ من علمائهم.

وللعلماء موقفٌ مع هذه الأخبار الإسرائيلية:

فهذه الأخبار على ثلاثة أقسامٍ:

* **قسم منها** يوافق الكتاب والسنة، بل وقد جاءت سنة رسول الله ﷺ بإثباته، كحديث الأقرع والأبرص والأعمى الذين ابتلاهم الله عز وجل، وكحديث أصحاب الغار الثلاثة الذين انطبقت على فم غارهم صخرة، وغير ذلك من الأحاديث، فهذه الأخبار مقبولة بلا شكٍّ ولا تردد.

* **وقسم ثانٍ** يخالف الكتاب والسُّنة فهذا يُرد، فمن

أصدق من الله قيلًا؟ ومن أصدق من الله حديثًا؟ ورسولنا محمد ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

* **وقسم ثالث** لا يوافق ولا يخالف، فهذا لا يُصدق ولا يُكذب وهذا المندرج تحت قوله ﷺ: «**وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[(١)].

وغالب الظن أن هذا الذي نحن بصدده مما جاء في وصف القربان من القسم الثالث الذي لا يُصدق ولا يُكذب ولذا فقد تكلم في وصفه بعض العلماء.

فبعض العلماء يقولون إن القربان كان كبشًا، فقد تقرب كل واحدٍ منهما بكبش، قالوا: أما الأول (المقتول هابيل) فقد تقرب بأفضل كبشٍ عنده، فكان كلما عمد إلى كبشٍ قال هناك ما هو أفضل منه، حتى توصَّل إلى

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا.

أفضل كبش وأعظم كبش وأسمنه فتقرَّب به إلى الله.

وأما الآخر فكان يعمد إلى الرديء من الكباش، وكلما وقعت يده على كبش ضنَّ به وبخل به حتى توصَّل إلى أردأ كبشٍ وأضعفه وأهزله فتقرب به، أي أنه قصد الرديء للتقرب به.

والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧][(١)] فيحثنا ربنا

(١) قال ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة، في التفسير القيم:
أضاف سبحانه الكسب إليهم، وإن كان هو الخالق لأفعالهم ؛ لأنه فعلهم القائم بهم، وأسند الإخراج إليه لأنه ليس فعلًا لهم، ولا هو مقدورًا لهم، فأضاف مقدورهم إليهم وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه. ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنه بالكلية. وخص سبحانه هذين النوعين وهما الخارج من الأرض، والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما =

= من المواشي: إما بحسب الواقع، فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك. فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب، والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع. فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم إلى بيان حكمهما وعموم وجودهما، وإما لأنهما أصول الأموال وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ، فإن الكسب يدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والأمتعة وسائر ما تتعلق به التجارة، والخارج من الأرض يتناول حبها وثمارها وركازها ومعدنها، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض، فكان ذكرهما أهم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧] فنهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء، كما هو عادة أكثر النفوس؛ تمسك الجيد لها، وتخرج الرديء للفقير.

ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك لا عن قصد وتيمم، بل عن اتفاق، إذ كان هو الحاضر إذ ذاك، أو كان ماله من جنسه. فإن هذا لم يتيمم الخبيث بل تيمم إخراج بعض ما منَّ الله به عليه.

وموقع قوله: ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ موقع الحال أي: لا تقصدوه منفقين منه.

ثم قال: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ أي: لو كنتم أنتم المستحقين له وبُذل لكم لم تأخذوه في حقوقكم إلا بأن تتسامحوا

في أخذه وتترخصوا فيه، من قولهم: أغمض فلان عن بعض حقه. ويقال للبائع: أغمض، أي: لا تستقص كأنك لا تبصر. وحقيقته: من إغماض الجفن، فكأن الرائي لكراهته له لا يملأ عينه منه، بل يغمض من بصره ويغمض عنه بعض نظره بغضًا، ومنه قول الشاعر:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيـ ـم رجال يرضون بالإغماض

وفيه معنيان:

أحدهما: كيف تبذلون لله وتهدون له ما لا ترضون ببذله لكم، ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له، والله أحق من يختار له خيار الأشياء وأنفَسها؟!

والثاني: كيف تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم، وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبًا؟!

ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما، فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧]، فغناه وحمده يأبيان قبوله الرديء، فإن قابل الرديء الخبيث إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغني عنه الشريف القدر الكامل الأوصاف فإنه لا يقبله.

قلت (مصطفى): ومن جميل المعاني وحسن الترتيب وبديع السياق أن تتبع هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٧]... بقوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ

عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨] فهذا معنى من أجمل المعاني، إذ الله سبحانه تعالى بيَّن أن الحامل على الإنفاق من رديء الكسب هو الشيطان فالشيطان يخوِّف الناس من الفقر ويَحُضُّهم على الفحشاء لكن الله يعدنا مغفرة منه وفضلًا والخزائن كلها بيديه وهو عالمٌ بمن يستحق العطاء فيُعطى.

قال ابن القيم رحمه الله في تفسيرها:

هذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني. فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل، والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعو إليه داعي البخل، وما يدعو إليه داعي الإنفاق، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين.

فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم. وهذا هو الداعي الغالب على الخلق. فإن أحدهم يهم بالصدقة والبذل فيجد في قلبه داعيًا يقول له: متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه، وافتقرت إليه بعد إخراجه، وإمساكه خير لك، حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه. فإذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل: الذي هو من أقبح الفواحش، وهذا إجماع من المفسرين: أن الفحشاء، هنا البخل. فهذا وعده وهذا أمره. وهو الكاذب في وعده، الغار الفاجر في أمره: فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون. فإنه يدلي من يدعوه

سبحانه في هذه الآية الكريمة أن ننفق من طيب الكسب ومن أطيبه، (ولا تيمموا) أي ولا نقصد ولا نعمد إلى (الخبيث) أي الرديء منه نخرجه قربةً إلى الله، فلسنا بآخذيه إذا أعطانا إياه أحدٌ.

= بغروره. ثم يورده شر الموارد. كما قيل:

دلاهُم بغرور، ثم أوردهم إن الخبيث لمن والاه غرار

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه، ولا نصيحة له، كما ينصح الرجل أخاه، ولا محبة في بقائه غنيًّا، بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته. وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل ليسيء ظنه بربه، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه، فيستوجب منه الحرمان.

وأما الله سبحانه فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه، وفضلًا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه إما في الدنيا، أو في الدنيا والآخرة. فهذا وعد الله وذاك وعد الشيطان. فلينظر البخيل والمنفق أيَّ الوعدين هو أوثق؟ وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه؟ والله يوفق من يشاء ويخذل من يشاء. وهو الواسع العليم.

وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨]، فإنه واسع العطاء، عليم بمن يستحق فضله، ومن يستحق عدله، فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله. وهو بكل شيء عليم.

أي أننا إذا أُعطينا هذا الرديء فلن نقبله لرداءته فكيف نخرجه نحن قربةً إلى الله عز وجل.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٣] عنكم وعما قدمتموه قربةً إليه، ﴿حَمِيدٌ﴾ يحمد لكم صنائع المعروف التي تتقربون بها إليه، ويحمد لكم كرمكم.

فلا ينبغي لصاحب مالٍ إذن أن يتقرب برديء ماله.

لا ينبغي لصاحب غنم أن يتقرب برديء غنمه.

لا ينبغي لصاحب محل قماش مثلًا أن يتقرب بأردأ قماش عنده.

ولا لصاحب ثمرٍ أن يتقرب بأردأ الثمار عنده.

وهكذا كل من رزقه الله رزقًا لا ينبغي أن يتقرب إلى الله بأردأ شيء فيه، بل ينفق من أطيبه ومن أفضله ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سَبَأ: الآية ٣٩].

ومن العلماء من قال: إن المتقرب به كان سنابل قمح وأن المقتول كان يتقرب بأفضل السنابل عنده، والقاتل كان يُقرِّب أسوأ ما عنده وأرداه.

وثَمَّ أقاويل أُخر غير ذلك فالله أعلم بالصواب.

شاهدنا أن كلًّا منهما تقرب إلى ربه بقربان.

* قال تعالى: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ نزلت نارٌ فأكلت قربان هابيل فعُلم أن الله تقبله[1]، وردّ على الآخر قُربانه الرديء.

أما لماذا تقبل الله قربان أحدهما ولم يتقبل قربان الآخر؟

فجوابه أن الله يتقبل من المتقين!!

يتقبل الله من ذوي القلوب الطيبة المؤمنة، وهو أعلم بهم!!

(١) وقد قدمنا ما للعلماء في ذلك من أقوال.

يتقبل الله من ذوي النوايا الحسنة!!

يتقبل الله من السخية نفوسهم في الإنفاق، المطمئنة قلوبهم بالخُلف من الله.

يتقبل الله من الذين اتقوا الشرك ووحدوا الله وعبدوه وأخلصوا في عبادته.

فهؤلاء يقبل الله منهم أعمالهم ويرفعها إليه وتُفَتَّحُ لها أبوابُ السماءِ.

* أما أهل الشقاوة والظلم والبغي والتطاول على العباد فأعمالهم مردودة عليهم وقرابينهم غيرُ متقبلة.

وكما قال تعالى في شأن أقوام: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٥٤].

. وابتداءً وانتهاءً فالله يعلم البر من الفاجر!

ويعلم الأبرار من الأشرار!

فيتقبل من الأبرار طيب أعمالهم، ويرد على الأشرار صنائعهم.

ومن ثم ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ فماذا كان؟

ماذا كان لما تقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل؟

وماذا صنع كل منهما حينئذٍ؟

لقد ظهرت أمور ما كان يعلمها إلا الله.

لقد أظهر الله أمورًا كانت مستكنةً في القلوب والخبير بها والعليم هو الله.

لقد ظهر ما كان خفيًّا!!

لقد بدت البغضاء من الأفواه!!وما تخفيه الصدور كان أكبر!!

قد قال ابن آدم الأول لأخيه لأمه وأبيه:
﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

❋ وكبُرت هذه الكلمة التي خرجت من فم هذا الشخص.

تقتلني؟؟؟!!!

❋ تقتلني وأنا أخوك؟، أخوك لأمك وأبيك؟؟!

❋ ولم تقتلني؟؟

❋ ماذا صنعتُ حتى أُقتل؟ وماذا اقترفت؟!!

وما الإساءة التي قدمتها إليك؟؟؟!!

تقتلني لأن الله تقبل قرباني؟؟؟!!

وهذا غريبٌ وهذا عجيبٌ، غريب أمرُ رجل يريد أن يقتل رجلًا لأن الله تقبل منه وجعل لعمله القبول!!

لقد كان من الأَولى لهذا القاتل أن يسأل لماذا تقبل الله

القربان من أخي ولم يتقبله مني؟

كان عليه أن يسأل نفسه سؤال المستفسر الباحث عن الحق والصواب.

لماذا رُدَّ عليَّ قرباني وتقبل الله قربان أخي؟؟!!

كان يستحب له أن يسأل أخاه: ما الذي صنعتَ حتى تُقبل منك القربان؟!!

ومن ثَمَّ يسلك سبيل المحسنين، سبيل المتقين، سبيل من تُتَقَبَّل منهم القرابين!!

إن العقلاء والفضلاء يُفكرون في أمر أنفسهم ويفكرون فيما ينفعهم ولا يضر غيرهم.

إن رجلًا من هؤلاء العقلاء كان يمشي فسمع صوتًا في سحابةٍ يقول لها: اسقي أرض فلان، فتبع السحابة إلى أن صبت ماءها في أرض رجلٍ قد انتظرها!!

فسأل الرجل عن اسمه فإذا هو الاسم الذي سُمِعَ في

السحابة فسأله ماذا تصنع في أرضك؟

سأله حتى يتعرف على سبب هذا الفضل!

سأله حتى يسلك مسلكه، ويذهب مذهبه ويصنع كالذي صنع، فهذا شأن العقلاء، هذا شأن الفضلاء.

وهذا الحديث بذلك:

أخرج مسلم في صحيحه[(١)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ[(٢)]، فَإِذَا شَرْجَةٌ[(٣)] مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ، لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي**

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٩٨٤).

(٢) الحرة: الأرض التي بها حجارة سوداء.

(٣) الشرجة: هي مسيل الماء.

السَّحَابَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ».

وهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سمع بشارة لابن مسعود من رسول الله ﷺ ذهب يستفسر من ابن مسعود عن قوله وعن دعائه الذي كان يدعو به إذ النبي ﷺ قد قال له: «سل تعطه، سل تعطه».

وهذا الحديث بذلك.

أخرج الإمام أحمد(١) بسندٍ حسن من حديث ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ وَهُوَ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَإِذَا ابْنُ مَسْعُودٍ يُصَلِّي وَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ النِّسَاءَ فَانْتَهَى إِلَى رَأْسِ الْمِائَةِ، فَجَعَلَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَدْعُو وَهُوَ قَائِمٌ

(١) أحمد (١/ ٤٥٤).

يُصَلِّي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اسْأَلْ تُعْطَهِ، اسْأَلْ تُعْطَهْ**»، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ بِقِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**» فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ لِيُبَشِّرَهُ، وَقَالَ لَهُ: مَا سَأَلْتَ اللَّهَ الْبَارِحَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمَانًا لَا يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَمُرَافَقَةَ مُحَمَّدٍ فِي أَعْلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَكَ، قَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ مَا سَبَقْتُهُ إِلَى خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا سَبَقَنِي إِلَيْهِ.

إن الفطر السليمة تدعو إلى هذا.

والعقول الصحيحة ترشد إليه وتتبناه.

ولكن الحسد، عياذًا بالله داءٌ، بل ومن أشر الأدواء.

إنه يحمل أهله على البغي وعلى ظلم العباد!!

إنه يحمل أهله على الطعن في أعراض الناس!!

إنه يحملهم على الكذب والافتراء والجحود

والنكران!!

بل وقد يحملهم على قتل الأنفس البريئة!!

بل وقد يحمل أهله على الكفر والعياذ بالله.

إن إبليس حسد آدم عليه السلام، فظهر كفره لما أمر بالسجود لآدم فأبى قائلًا: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: الآية ٦١] ثم آل به الأمر إلى أن قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: الآية ٦٢] .

* إن الحسد حمل ابن آدم الأول على قتل أخيه.

* إن الحسد حمل إخوة يوسف على إلقاء أخيهم في غيابة الجب، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف: الآية ٨] ، فقالوا بعد طول تفكير ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: الآية ٩] .

إن الحسد حمل القرشيين - الذين حسدوا رسول الله ﷺ على نبوته - على الكفر والعياذ بالله فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: الآية ٣١].

* إن قوم فرعون حسدوا موسى وهارون فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٧].

وإن قومًا من بني إسرائيل اعترضوا على نبيٍّ لهم وخالف كثير منهم أمره حسدًا لرجلٍ ملَّكَهُ الله عليهم.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ

يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾.

* إن اليهود آل بهم الحسد إلى الكفر وجحود رسالة محمد ﷺ وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا.

ووجه ذلك أن اليهود كانوا مضطهدين مغلوبين مقهورين من الأوس والخزرج قبل مبعث النبي ﷺ وكانوا يستفتحون على الذين كفروا من الأوس والخزرج، ويقولون سيخرج منا نبي نتبعه فنقتلكم نحن وهو قتل عاد، وكانوا يستبشرون بمقدم النبي ﷺ، يستظهرون به على الكفار فكانوا يعرفون عنه وعن مَبعثِهِ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٦].

ولكن ماذا كان لما بُعث النبي ﷺ ولم يكن من نسل إسحاق عليه السلام؟!!

ماذا كان لما جاء النبي ﷺ وليس من نسل يعقوب عليه السلام، ويعقوب هو نبي الله إسرائيل.

ماذا كان إذ لم يأت النبيُّ ﷺ إسرائيليًّا من بني إسرائيل؟!!

كان - عياذًا بالله - مصيرهم أن حسدوه ومن ثَمَّ كفروا به كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٩].

بل وحسدوا أهل الإيمان ورغبوا في إضلالهم وغوايتهم، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٩].

إن هذا الداء - داء الحسد - إذن داءٌ خطيرٌ، وعقابه أليم.

فمن ثَمَّ نُهينا عنه أشد النهي وحُذِّرْنَا منه أشد تحذير،

فإنه إذا تمادى بالشخص وترك الشخص نفسه بلا تهذيب ولا تقويم ولا إصلاح ولا تزكية فإنه قد يؤول به إلى بعض ما ذكرنا، بل وإلى كل ما ذكرنا من قطيعة رحم وبغي وظلم وكذب وافتراء بل وقتل وكفر.

من ثَمَّ نُهينا عنه، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النِّساء: الآيات ٥٤-٥٥].

وقال النبي ﷺ: «ولا تحاسدوا».

وذلك في حديث أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

إن الحاسد عياذًا بالله يتعامى عن كل شيءٍ إلا عن محسوده فيقف لمحسوده بالمرصاد، وقد يكون هناك من

أُنعم عليه أضعاف أضعاف المحسود، لكن الحاسد البغيض لا ينظر إليهم بل يركز النظر إلى محسوده ويكثر من الفكر والتفكير في محسوده، ويترك العالم أجمع ويتجه لمحسوده بالنظرات القاتلة وبالتمني الشديد لزوال النعم عنه.

فحقًّا إن الحاسد يستحق أن يوصف بالإجرام.

بل في كثير من الأحيان يكون مجرمًا.

عافانا الله من الإجرام والمجرمين.

إن خطر الحاسد شديدٌ، وخطر العائن أيضًا شديد.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**العين حق**»[١].

---

(١) صحيح، أخرجه البخاري (حديث ٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. =

وقد يتسرب هذا الحسد إلى أهل الإيمان، فها هم إخوة يوسف يقولون: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يُوسُف: الآية ٨].

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد صحيح إلى أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ(١) قال: رأى عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ سهل بن حنيف يَغْتَسِلُ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْم وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ فَلُبِطَ سَهْلٌ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لَكَ فِي سَهْل بن حنيف، وَاللَّهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ فقَالَ: «هَلْ تَتَّهِمُونَ له أَحَدًا؟» قَالُوا: نتهم عَامِرَ بْنَ رَبِيعَةَ، قال: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامِرًا فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ وَقَالَ:

= وفي رواية لمسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس مرفوعًا: **«العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغتسلوا»**.

(١) هذا وإن كان ظاهره الإرسال لأن أبا أمامة تابعي لم يشاهد الواقعة إلا أنه في بعض الطرق عند النسائي وأحمد صرح بأنه أخذ ذلك عن أبيه فثبت الاتصال وصح الحديث والحمد لله.

«عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ أَلَّا بَرَّكْتَ؟! اغْتَسِلْ لَهُ» فَغَسَلَ عامر وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَمِرْفَقَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صُبَّ عليه، فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ.

والأحاديث والآثار في هذا كثيرةٌ جدًّا.

فمن ثَمَّ أمرنا الله بالاستعاذة من الحاسد.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [سورة الفَلَق].

* وهذه زواجر للحاسد لعله ينكفُّ عن حسده.

ألا فليعلم الحاسد أنه معترض على أقدار الله عز وجل فإذا علم الحاسد أنه بحسده لأخيه المسلم إنما يعترض على أقدار الله، ويكره حكم الله وينازع ربه في

قسمته التي قسمها لعباده فهو سبحانه الذي جعل هذا غنيًّا وجعل هذا ذكيًّا وجعل هذا عالمًا وأعطى هذا المال ورزق هذا العيال، ووهب هذا الجاه ومكن هذا من السلطان، ورفع منصب هذا، وكتب القبول لذاك و... فهو سبحانه الذي قدر المقادير وخلق كل شيء بقدر كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القَمَر: الآية ٤٩].

وكما قال نبيه ﷺ: «**كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[(١)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ومعنى الكيس: هو النشاط والحذق بالأمور وهو ضد العجز.

ومن هذا قول الله عز وجل للمشركين الذين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزّخرُف: الآية ٣١] قال الله سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزّخرُف: الآية ٣٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النِّساء: الآية ٥٤].

فإذا علم الحاسد أنه بحسده معترض على أقدار الله، دفعه إيمانه - إن كان يؤمن بالله واليوم الآخر والقدر خيره وشره - إلى ترك الحسد والاستعاذة بالله منه.

الحاسد متشبه بالمشركين:

* وإذا علم الحاسد أنه متشبه بالمشركين وبالمنافقين في تمنيهم الشر للمسلمين وزوال النعم عنهم كما قال

تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٠] وكما قال سبحانه: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٨] وإذا علم المسلم أنه منهي عن التشبه بالمشركين في معتقداتهم وسمتهم ودينهم لترك حسد إخوانه المؤمنين منعًا لنفسه من أن يتورط مع من تشبه بهم في أخراه حيث سوء المصير.

الحاسد جندي من جند إبليس:

* وإذا علم الحاسد أنه بحسده للمؤمنين يكون جنديًّا من جند إبليس يسخره إبليس لإمضاء ما يريد في عباد الله الصالحين لانكف عن حسده، فمن ذا الذي يريد أن يكون جنديًّا لإبليس اللعين، وعدوًّا لله رب العالمين معترضًا على قدره وشرعه مسخطًا له مرضيًا لأوليائه الشياطين؟!!!

الحاسد مفارقٌ للمؤمنين:

* إذا علم الحاسد أنه بحسده للمؤمنين يفارقهم في

حبهم الخير بعضهم لبعض كما قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفَتْح: الآية ٢٩] وأنه بمفارقتهم في الدنيا يوشك أن يفارقهم في الآخرة فمن أحب قومًا حشر معهم، إذا علم ذلك لانزجر عن حسده.

الحاسد معذبٌ في الآخرة:

* إذا علم الحاسد ما سيحل به من عذاب الله سبحانه في الآخرة ومن عقاب عظيم من جراء ما تقدم لانزجر وانكف عن حسده للناس واستغفر ربه من كل ما اقترفه على نفسه وجرَّه على المسلمين.

حسنات الحاسد تذهب للمحسود:

* وإذا علمت أيها الحاسد أن المحسود ينتفع بحسدك له في الآخرة فهو مظلوم منك فيأخذ من ديوان حسناتك ويُضم إلى ديوان حسناته ويطرح من ديوان سيئاته ويُحط على ديوان سيئاتك، ولا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره فهي هدايا

تهديها إليه وأنت لا تشعر والموفق من وفقه الله.

أما الأضرار على الحاسد في الدنيا فمنها - كما لخصه أهل العلم:

الحاسد دائمًا في الهم والحزن:

* إن الحاسد بسبب الحسد لا يزال في الهم والحزن والنكد والكمد والناس ينعم الله عليهم بأنواع من النعم دائمًا فلا يزال الحاسد يعذب بكل نعمة يراها على الناس ويتألم بكل بلية تنصرف عنهم فيبقى أبدًا مغمومًا مهمومًا، فالله ينعم على العباد وقلبه يتمزق غيظًا، والله يصرف البلايا عن العباد وعقله يتشتت كمدًا ونفسه تذهب حسرات على ما فات الناس من البلايا، فهو بهذا قد حصل له ما أراد حصوله لأعدائه المحسودين فلم يتأثروا بشيء مما أراده لهم بفضل الله وارتد كيده على نفسه وجاء تدميره في تدبيره.

* ثم إن هذا الغم والهم إذا استولى عليه أمرض بدنه

وأزال الصحة عنه وأنزله في الوساوس وأوقعه في شراكها ونغص عليه لذة الطعام والشراب.

الحاسد قد يتمنى لنفسه البلاء:

* ثم إن الحاسد - وهو لا يدري - قد يتمنى لنفسه البلاء بحسده للناس فقد تكون النعمة التي يعيش الناس في كنفها ابتلاء من الله سبحانه وتعالى لهم، وقد عافاه الله من ذلك الابتلاء فيتمناه لنفسه، وأيضًا إذا رزق هو هذه النعم وزفت إليه وجوه الإحسان لم ينفك عن حاسدٍ يحسده فلو أذهب الله النعمة عنك لحسده لك فقد زالت عنك نعم في الدين والدنيا، نعم الدين زالت عنك لحسدك الناس ونعم الدنيا زالت عنك لحسد الناس لك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الحاسد تنزل عليه البلايا:

* ثم إن الحاسد تنزل عليه البلايا في الدنيا لهذه الكبيرة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا

كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾ [الشّورى: الآية ٣٠].

الحاسد مكروه عند الخلق:

* ثم إن الحاسد يكون مذمومًا عند الخلق مكروهًا بينهم لما يعلمون من كراهيته لهم.

* ولنرجع بعد هذا البيان إلى ابن آدم الأول (المقتول) ماذا كان منه لما قال له أخوه الحاسد الباغي الظالم ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾ ؟!!

فلننظر إلى جواب هذا المقتول المظلوم قبل أن يُقتل، فمنه نتعلم، نعم نتعلم من رجلٍ تقبّل الله منه، نتعلم من رجلٍ تقي أحبه الله!

لقد ذكَّر أخاه بالله، وذكره بأسباب القَبول لعله يسلكها.

لقد قال له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ من الذين اتقوا الله في أفعالهم وأقوالهم، من الذين صلحت

نواياهم فأخلصوا العبادة لله واتقوا الشرك.

لقد ألان له القول لعله يتذكر أو يخشى، فقال له:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

لئن مددت إليَّ يدك بالضرب لتقتلني ما أنا بمادٍّ يديَ إليك لأقتلك، وليس ذلك عن ضعفٍ مني، لا، ولكني أخاف الله رب العالمين.

فهكذا يُذكر الأخ أخاه بالله عز وجل.

وهكذا يشرع تذكير المعتدين!

يشرع تذكيرهم بالله عز وجل!

ومن التذكير بالله عز وجل:

قول مريم عليها السلام لمن ظنت أنه يريد الاعتداء عليها: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾

[مريم: الآية ١٨].

ومن هذا الباب قول موسى عليه السلام للسحرة: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه: الآية ٦١].

ومن ذلك ما أخرجه النسائي وأحمد[١] من طريق قابوس بن مخارق عن أبيه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يأتيني فيريد مالي؟! قال: «**ذكِّره بالله**» قال فإن لم يذكر... الحديث.

ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أَبي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ. فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**» فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ! اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**» قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا**

(١) النسائي (٧/ ١١٣-١١٤)، وأحمد (٥/ ٢٩٤- ٢٩٥) وسنده حسن.

الْغُلَامِ» قَالَ: فَقُلْتُ لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

وفي رواية لمسلم أيضًا: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ**» فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ، فَقَالَ: «**أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ**».

وفي رواية ثالثة عند مسلم[1] أيضًا عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ غُلَامَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ، قَالَ: فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ، فَتَرَكَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَاللَّهِ لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ**» قَالَ: فَأَعْتَقَهُ.

* ثم واصل ابن آدم المظلوم قوله: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(١) مسلم (حديث ١٦٥٩).

لقد بالغ ابن آدم الأول (المظلوم) في تحذير أخيه من القتل.

لقد بالغ في وعظه وتذكيره قائلًا ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾

أي إن كان لزامًا أن يكون أحدنا قاتلًا والآخر مقتولًا فلن أرضى أبدًا لنفسي أن أكون أنا القاتل، وذلك لِمَا في القتل من ذنوبٍ وآثام بل وكبائر عظام.

لن أرضى أن أكون أنا القاتل، وكيف أَقْتُل؟! ومن أَقْتُل؟!

* أأقتل أخي؟! أأقطع رحمي؟!! أأعق والديَّ؟!!

وأعظم من ذلك كله . . أأغضب ربي؟!!، وأُسخطه عليَّ؟!

* أأسنُّ سننًا سيئة في الخلق من بعدي؟!

كلا فلن يكون هذا أبدًا إن شاء الله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ

﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

فإن كان لابد من قاتلٍ ومقتول فليكن المقتول أنا!!

إني أريد أن ﴿تَبُوٓأَ﴾ ترجع مُحمَّلًا ﴿بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ بإثم قتلي مع آثامك السابقة التي ارتكبتها ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ إن قتلتني ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جزاؤهم النار، جزاءً لما ارتكبوه من قتل.

فيضاف إثمُ هذه الجريمةِ البشعةِ إلى سائرِ آثامهم فيطرحوا في النار.

وكذا فيُؤخذ من سيئاتِ المقتولين والمظلومين فتطرح على القتلة والظالمين، وذلك كما في حديث المُفلس:

ففي صحيح مسلم[1] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ

(١) مسلم (حديث ٢٥٨١).

الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَام وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

وَعَرضًا - فهذا سؤال قد يُطرح، فلطرحه وجه قويٌّ وللجواب عليه وجه أقوى ألا وهو:

هل يجوز للمُعتدى عليه أن يدفع المعتدي أم يتركه حتى يقتله؟

وجوابه: نعم يجوز دفعه إجماعًا، وقد نقل القرطبي هذا الإجماع ثم قال: وفي وجوب ذلك عليه خلاف، والأصح وجوب ذلك لما فيه من النهي عن المنكر.

قلت (مصطفى): أما الأحاديث التي وردت في هذا الباب وظاهرها يخالف ما سبق.

منها: حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ[(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ عِنْدَ فِتْنَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي»** قَالَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي وَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ لِيَقْتُلَنِي؟ قَالَ: **«كُنْ كَابْنِ آدَمَ»**.

* وعند الإمام أحمد[(٢)] من طريق أبي الْأَشْعَثِ الصَّنْعَانِي قَالَ: بَعَثَنَا يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَلَمَّا قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ دَخَلْتُ عَلَى فُلَانٍ - سَمَّى زِيَادٌ اسْمَهُ - فَقَالَ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ صَنَعُوا مَا صَنَعُوا، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: **«إِنْ أَدْرَكْتَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْفِتَنِ فَاعْمَدْ إِلَى أُحُدٍ فَاكْسِرْ بِهِ حَدَّ سَيْفِكَ، ثُمَّ اقْعُدْ**

---

(١) أخرجه الترمذي (حديث ٢١٩٤)، وأحمد (١/ ١٨٥) وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه أحمد بسند حسن (٤/ ٢٢٦).

فِي بَيْتِك، قَالَ: فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلَى الْبَيْتِ فَقُمْ إِلَى الْمَخْدَعِ، فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْكَ الْمَخْدَعَ فَاجْثُ عَلَى رُكْبَتَيْكَ، وَقُلْ: بُؤْ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ، فَقَدْ كَسَرْتُ حَدَّ سَيْفِي وَقَعَدْتُ فِي بَيْتِي».

❊ وما أخرجه مسلم[1] من حديث أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ أَلَا ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا، أَلَا فَإِذَا نَزَلَتْ - أَوْ وَقَعَتْ - فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلَا غَنَمٌ وَلَا أَرْضٌ؟ قَالَ: «يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ ثُمَّ لِيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟

(١) مسلم (حديث ٢٨٨٧).

اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَّيْنِ - أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ - فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟ قَالَ: **«يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»**.

* وعند ابن حبان[١] في صحيحه عن أبي ذر قال: ركب رسول الله ﷺ حمارًا وأردفني خلفه، ثم قال: **«يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوعٌ شديدٌ حتى لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك؟»** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«تَعَفَّفْ»** قال: **«يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناسَ موتٌ شديدٌ حتى يكون البيت بالعبدِ، كيف تصنع؟»** قال: الله ورسوله أعلم. قال: **«اصبر. يا أبا ذر، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضًا حتى تغرق حجارة الزيت في الدماء، كيف تصنع؟»** قال: الله ورسوله

---

(١) موارد الظمآن (١٨٦٢) وسنده صحيح.

أعلم، قال: «**اقعد في بيتك وأَغلق عليك بابك**».

قال: أرأيت إن لم أُترك؟ قال: «**ائتِ من أنت منه فكُن فيهم**»، قال: فآخذُ سلاحي؟ قال: «**إذًا تشاركهم، ولكن إن خشيتَ أن يروعك شعاعُ السِّيفِ فألق طرفَ ردائك على وجهك يَبوءُ بإثمه وإثمك**».

* فمثل هذه الأحاديث أجاب عليها القرطبي بقوله:

وحمله العلماء على ترك القتال في الفتنة، وكف اليد عند الشبهة.

* أرجع فأقول، فهكذا واصل ابن آدم (المقتول) النصحَ وواصل.

وواصل أيضًا التحذير والتذكير!!

* ولكن الذكرى تنفع المؤمنين، فبها ينتفعون، ومنها يستفيدون قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٥] أما غيرهم فلا يكادون ينتفعون،

إذ الله قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: الآيتان ٩٦- ٩٧].

وكما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: الآية ٤١].

ترى ماذا صنع الأخُ الظالمُ الغَشُومُ بأخيه التقيِّ الوليِّ؟؟؟

إنه تمادَى في غَيِّه مع أخيه ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ زينت له نفسه، تِلْك النفس الأَمَّارة بالسوء، وحسَّنت له نفسه، وسهَّلت عليه نفسه قتل أخيه، وشجعته نفسه على قتل أخيه ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾

فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ويالها من مصيبة!!!

لقد قُتل الرجل التقي!!!

لقد قُتل ذاك الولي!!!

قُتل بلا ذنب ولا سبب!!!

قُتل بلا ظُلم ارتُكب!!!

فيالها من مصيبة، ويالها من بليةٍ!!!

لقد سُفِكَتِ الدماء!!!

لقد قطعت الأرحام!!

لقد دخل الهمُّ والحزنُ على الوالدَيْن!!!

لقد سُنَّت السُنَنُ السيئة!!!

* وفضلًا عن هذا كله فقد حل بالقاتل نفسه من البلاء والعقاب ما حلَّ وما سيحل به أيضًا يوم يقوم الناس لرب العالمين.

إن هذا الذي قد حدث من قتل لمصيبة ابتلي بها آدم عليه السلام في ولده، وكذا ابتليت بها أمنا حواء عليها

السلام، فكيف بالمرء إذا جاءه خبرٌ: إن أحد أبنائك قد قتل الابن الآخر؟ فحقًّا إنها مصيبة وبلية.

ولكن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء.

* وبنحو هذا الابتلاء ابتُلي نوحٌ في ولده الكافر، فقد كفر ولده.

وقد قال تعالى عن إبراهيم وإسحاق عليهما السلام ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصَّافات: الآية ١١٣] فحقًّا إن المهتدي من هداه الله.

* وابتلي نبي الله يعقوب عليه السلام بأبنائه الذين ألقوا أخاهم في غيابة الجُبِّ وجاءوا كاذبين قائلين ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾

[يُوسُف: الآية ١٧].

فحقًّا إنها السنن، نسأل الله العافية في الدين والدنيا والنفس والمال والأهل والولد والإخوان.

إن الشخص قد يعجب، ويتعجب كذلك ويزداد عجبه إذا نظر إلى شخصٍ قتل شخصًا مؤمنًا تقيًّا لا لذنب ارتكب إلا أن الله تقبل منه قربانه .

ولكن هذا العجب قد يتوقف شيئًا ما إذا علم أن هذه سنة كونية في الخلق، فقد خُلقوا ومنهم مؤمن ومنهم كافر، وفريق في الجنة وفريق في السعير!!

وأهل السعير وأهل الجحيم والعياذ بالله لا يتركون مؤمنًا يعبد ربه كما أمره ربه، بل يتوعدونهم بغير ذنب ارتكبوه وكما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البُرُوج: الآية ٨].

وكما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

وكما قال قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] ، وكما قال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فيا سبحان الله أصبح التطهر في عرف قوم لوط جريمةً يستحق فاعلوها الطرد من البلاد؟؟

فهكذا الأمر حين تُطمس الفِطر.

فهكذا الظلمة الفجرة لا يتركون مؤمنًا يسير في مسيرته متقربًا إلى الله تبارك وتعالى.

وكما قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: ليتني حيًّا إذ يخرجك قومك قال عليه الصلاة والسلام: «**أو مخرجي هم؟**» قال: نعم، لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عُودي.

فحقًّا إنها السنن.

إن القتل جريمة كبرى!!

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: الآية ٩٣].

فانظر كيف توالت العقوبات على قاتل المؤمنين جزاؤه جهنم!!

خالدًا فيها!!

غضب الله عليه!!

لعنه!!

أعد له عذابًا عظيمًا!!

وانظر أيضًا إلى توالي المآثم ومضاعفاتها عليه.

قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ [الفُرقان: الآيات ٦٨-٧٠].

وانظر إلى فداحة هذا الذنب - ذنب القتل - وعظمِه وخطورته أيضًا في هذه الأحاديث:

أخرج النسائي[1] من حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَتْلُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا**».

وعند البخاري[2] من حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّه عَنْهمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**».

---

(١) حسن لغيره، أخرجه النسائي (٧/ ٨٣) وله شواهد عند النسائي أيضًا (٧/ ٨٢)، والترمذي (١٣٩٥).

(٢) البخاري (حديث ٦٨٦٢).

وعنده[١] أيضًا من حديث عَبْد اللَّهِ بن مسعود قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ».

وفي الصحيحين[٢] من حديث ابن مسعود أيضًا قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ».

وعند مسلم[٣] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ».

---

(١) البخاري (حديث ٦٨٦٤).

(٢) البخاري (٧٠٧٦)، ومسلم (٦٤).

(٣) مسلم (١٨٤٨).

وفي الصحيحين[١] من حديث أُسَامَةَ بْن زَيْدٍ رَضِي اللَّه عَنْهما قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ - مِنْ جُهَيْنَةَ - قَالَ: فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فهَزَمْنَاهُمْ، قَالَ: وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ. قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: فَقَالَ لِي: «**يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: «**قَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**» قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبلَ ذَلِك الْيَوْمِ.

وفي الصحيحين[٢] أيضًا من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ:

(١) البخاري (حديث ٦٨٧٢)، ومسلم (حديث ٩٦).

(٢) البخاري (حديث ٧٠٨٠)، ومسلم (حديث ٦٥).

«اسْتَنْصِتِ النَّاسَ» ثم قال: «**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**».

وهو في الصحيحين من عدة طرق عن رسول الله ﷺ.

وفي الصحيحين[1] أيضًا من حديث أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**».

* إن ابن آدم الأول قد قتل أخاه.

والنبي ﷺ يقول: «**لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ كان أَوَّل مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ**»[2].

(١) البخاري (حديث ٣١)، ومسلم (حديث ٢٨٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

* فهل انتهت القضية بقتل ابن آدم لأخيه؟

* هل أروى القتل ظمأ الحسد؟، وهل شفى غليله؟

كلا فالقضية لم تَنْتَهِ بعد . . .

فيوم الفصل كان ميقاتًا.

إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين.

ومن قَتَل سيموت كما أن من قُتل قد مات، ولكن كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٣١].

*** لقد أفضى المقتول إلى ما قدَّم، ويُرجى له الخير وتُرجى له الجنان فقد كان من المتقين، وقد تقبل الله قربانه.**

* **أما القاتل** ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

وعياذًا بالله من الخسران.

لقد قتل نفسًا مؤمنة بغير حق!!

لقد سنَّ سنَّةً سيئةً في الأرض!!

لقد قطع الأرحام!!

لقد أحزن الوالدين[(١)] أيما حزن!!

لقد فقد أخاه، ذلكم الجليس الصالح والأنيس الناصح!!

لقد أسعد الشيطان، وأغضب الرحمن!!

لقد وجد أخاه ميتًا طريحًا، لم يعد يتكلم!!

لم يعد ينطق!!

لم يعد يبتسم!!

لم يعد ينصح ويُشير!!

---

(١) إن كانا من الأحياء آنذاك، وإلا فلم نقف على دليل يثبت ذلك أو ينفيه.

لم يدر ابن آدم القاتل كيف يصنع بجثة أخيه.

لقد فكَّر وبحثَ، ودار واستدار، وصال بفكره وجال، وفَتَّش واجتهد، ولكنه لم يهتدِ، ولم يدر كيف يصنع بأخيه المقتول.

لم يكن الدَّفن قد عُرف! ولم يكن الفاسق (القاتل) ليهتدي من تلقاء نفسه، تلك النفس المُذنبة، تلك النفس القاتلة، تلك النفس الأمَّارة بالسوء!

* إن الذنوب تحجب عن الفهم الصحيح، وتعمي أبصار وبصائر أصحابها.

* وذنبُ القتل من أعظم الذنوب، ومن ثَمَّ فإنه يحجب عن الفهم الصحيح ويُورث الغباء والعمى وقلة الفهم.

قال الله تعالى في شأن بني إسرائيل: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المَائدة: الآيتان ٧٠، ٧١].

لقد ظن الإسرائليون الذين قتلوا المرسلين ألا يكون ابتلاء فكان الابتلاء من حيث لا يدري أحدهم ولا يتوقع!

لقد كان الابتلاء بأن ﴿عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ أعماهم الله عن الحق وأصمهم عنه.

أما أهل الطاعات فإنهم يفهمون عن الله مراده، والربُّ يسددهم ويوفقهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩].

أما ابن آدم الأول القاتل (قابيل) فلم يَدْرِ كيف يصنع؟!

لقد وقف عاجزًا حائرًا تائهًا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾.

لقد بعث إليه فاسقًا من الفواسق (وهو الغراب)[1] يُعلِّمه ويرشده ﴿يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يفتش في الأرض بمنقاره، ويحفر ويُثير التراب.

لقد قال بعض العلماء: إن الله أرسل غرابين يتقاتلان فقتل أحدهما الآخر فسقط ميتًا، فنزل الغراب القاتل يفتش في الأرض ويحفر بمنقاره مكانًا فدفن فيه أخاه.

كذا قال بعض العلماء.

وسياق الكتاب العزيز مفاده أن غرابًا أُرسل يبحث في الأرض، فالله أعلم بصحة ما ذكره العلماء.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «خمس فواسق يُقتلن في الحلِّ والحرم...» فذكر منها الغراب. والحديث عند البخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨) وله طرقٌ عن رسول الله ﷺ.

نرجع فنقول إن ابن آدم الأول (القاتل) طفق ينظر إلى الغراب وما يصنع فـ ﴿قَالَ﴾ متأسفًا على جهل نفسه ومتعجبًا من صنع الغراب ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ وهي كلمة تقولها العرب عند الهلاك، كأنه قال يا هلاكي، وكأنه أيضًا نادى الويل فكأنه قال يا ويل تعال وانزل وهلم واحضر فهذا أوانك يا ويل، وهذا وقت حضورك يا ويل!!

تعال يا ويل وانزل وحلَّ برجلٍ قتل نفسًا ولم يدر كيف يصنع بها.

تعال يا ويل وانزل برجل عجز أن ﴿يُوَٰرِىَ﴾ يستر ويغطي سوأة أخيه.

لقد قال ابن آدم الأول آسفًا على جهل نفسه ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾.

وأصل السوأة ما تُسيء إلى صاحبها إذا رئيتْ، وقد تطلق أحيانًا على القُبُل والدُّبر فهما سوأتان.

وقد تطلق على الجثة المتغيرة كريهة الرائحة، فهذا المنظر يُسيء إلى صاحبه، وقد تطلق على غير ذلك.

فالمراد بقوله: ﴿سَوْءَةَ أَخِيۚ﴾ جثة أخي المتغيرة.

إن ابن آدم عجز أن يكون مثل الغراب، فلم يستطع أن يواري سوأة أخيه إلى أن علمه الغراب.

فهكذا فاسقٌ تعلَّم من فاسق!!

فالقاتل فاسق والغراب فاسق!!

لم يستطع ابن آدم أن يدفن أخاه إلى أن علَّمه الغراب.

وقد يُطرح هنا سؤال **هل مجرد الندم يُعد توبةً؟**

وإذا كان يُعد توبة فكيف ذلك وقد قال النبي ﷺ: **«لا تقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ منها لأنه أول من سنَّ القتل»**.

وجواب السؤال الأول:

فليُعلم أنه قد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**الندم توبة**»[(١)].

أما لماذا لم يقبل منه ندمه على أنه توبة، فمن العلماء - كما قدمنا - من يرى أن ندمه لم يكن على القتل إنما كان على الفراق وغيره فمن ثم لم يغفر له ذنبه.

ومن العلماء من قال: إن الندم في شريعتهم لم يكن توبة أما في شريعتنا فالندم توبة.

ومن العلماء من قال: إن الندم في حق الله عز وجل توبة، لكن في حقوق العباد لا يكفي الندم. والله أعلم.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾

أصبح نادمًا، ولكن على ماذا؟؟

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد (١/ ٤٢٣) وغيره، وفي أسانيده اختلاف غير ضار.

من العلماء من قال: أصبح من النادمين على فِراق أخيه، ليس على قتله.

ومنهم من قال: أصبح من النادمين على قتل أخيه، لكن لم يستمر ندمه.

ومنهم من قال: أصبح من النادمين حيث رأى إكرام الله لأخيه المقتول بأن قَيَّض له الغراب حتى واراه ولم يكن ذلك ندم توبة.

فـ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ من جراء ذلك الذي قد حدث من قتل ابن آدم الأول لأخيه المؤمن التقي المظلوم ﴿كَتَبْنَا﴾ حكمنا ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير أن تقتل النفس المقتولة نفسًا فتقتل بها ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بغير فساد[1] ارتكبته تقتل به ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

(١) وهذا الفساد يكون بالشرك بالله وبحرب الله ورسوله وإخافة السبيل وقطع الطريق ونحو ذلك.

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾.

ولسائل أن يسأل لماذا غلِّظت العقوبة على بني إسرائيل هذا التغليظ؟

وجوابه أن هذا التغليظ حُكم به عليهم لاستهتارهم بالقتل وسفك الدماء ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾ [المائدة: ٧٠].

فالاستهتار بالقتل كان سببًا في تغليظ العقوبة عليهم.

ونحن نفعل ذلك في دنيانا فالشخص المستهتر العابث عقوبته أشد من الشخص الذي زلت قدمه في مسألة من المسائل.

وقد جاء من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ ما يؤيد هذا المعنى، معنى أن المستهتر تغلَّظ عليه العقوبة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا

﴿لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾ [النِّساء: الآية ١٣٧].

وفي صحيح مسلم[١] من حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ حِينَ جِيءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ قَصِيرٌ أَعْضَلُ، لَيْسَ عَلَيْهِ رِدَاءٌ، فَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَنَّهُ زَنَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«فَلَعَلَّكَ؟»** قَالَ: لَا وَاللَّهِ، إِنَّهُ قَدْ زَنَى الْآخِرُ، قَالَ: فَرَجَمَهُ ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: **«أَلَا كُلَّمَا نَفَرْنَا غَازِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، خَلَفَ أَحَدُهُمْ لَهُ نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ، يَمْنَحُ أَحَدُهُمُ الْكُثْبَةَ، أَمَا وَاللَّهِ إِنْ يُمْكِنِّي مِنْ أَحَدِهِمْ لَأُنَكِّلَنَّهُ عَنْهُ»**.

ومن هذا الباب ما ورد عن رسول الله ﷺ من الأمر بقتل شارب الخمر للمرة الرابعة[٢].

ويبقى سؤال قائم، وهو:

إذا كان قتل نفسين أعظم من قتل نفسٍ واحدة.

(١) مسلم (حديث ١٦٩٢).

إذن فما معنى قوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ ؟.

وجوابه من وجوه:

أحدها: أن المراد هنا الاستحلال. أي من استحل قتل واحدٍ فقد استحل قتل الجميع لأنه أنكر الشرع.

ومن انتهك حرمة نفس وقتلها كان كمن انتهك حرمة الناس وقتلهم.

الثاني: أن المراد بالنفس هنا النبي أو الإمام العادل، وقد ورد بهذا أثرٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبري وغيره.

ولفظه عند الطبري: من شدَّ على عضد نبيٍّ أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعًا، ومن قتل نبيًّا أو إمام عدلٍ فكأنما قتل الناس جميعًا[1].

(١) الطبري (أثر ١١٧٧١) ويُحسن هذا عن ابن عباس، وله طرق عنه.

الثالث: أن من قتل نفسًا فعليه من العقوبة ما ذكره الله تعالى في كتابه حيث قال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النِّساء: الآية ٩٣].

وكذا فهذه العقوبة لمن قتل الناس جميعًا، وإن كان هناك تفاوتٌ في الغضب وتفاوت في اللعن. والله أعلم.

وقد اختار الطبري نحو مطلع هذا القول الثالث فقال:

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: أنه من قتل نفسًا مؤمنة بغير نفس قتَلَتها فاستحقت القَوَد بها والقتل قِصاصًا أو بغير فساد في الأرض، بحرب الله ورسوله وحرب المؤمنين فيها فكأنما قتل الناس جميعًا فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله جل ثناؤه، كما أوعده ذلك من فعله ربُّه بقوله: ﴿وَمَن

يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

[النِّساء: الآية ٩٣] انتهى.

الرابع: أن هذا الحكم كان خاصًّا ببني إسرائيل تغليظًا عليهم.

الخامس: المعنى: أن من قتل نفسًا فالمؤمنون كلهم خصماؤه لأنه قد وتر الجميع، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا أي يجب على الكل شكره.

* أما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فمعناه - والله أعلم -: أن من تركها فلم يقتلها وحفظ حرمتها فقد حفظ حرمة الأنفس جميعًا.

ووجه آخر: ومن عفا عن نفس استوجبت القتل قصاصًا، فتركها ولم يقتص منها عفوًا وتفضلا فكأنما

أحيا الناس جميعًا.

ووجه ثالث: أن من لم يقتل نفسًا فقد أمنت حياة الناس منه.

* ثم يقسم ربنا بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

أي أن مجيء الرسل لم ينفع الإسرائيليين، بل ومع مجيء الرسل بالآيات البينات والدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات لم ينتفع الإسرائيليون بذلك، كما أن ابن آدم القاتل لم ينتفع بتذكير المقتول، بل قتله، وكذا الإسرائيليون ﴿كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾أي عاملون بالمعاصي والمنكرات وساعون في الأرض بالفساد مع مجيء الرسل بالبينات.

فالآيات لا تنفع إلا أهل الإيمان ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ

وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يُونس: الآية ١٠١] وأيضًا ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذّاريَات: الآية ٥٥].

* * *

وتلخيصًا وختامًا نعود فنذكِّر على وجه السرعة بفوائد استخلصت واستخرجت من هذه القصة:

* إنها ذكَّرت بفضل التقوى وأن الله يتقبل من أهلها.

* إنها حذَّرت من الحسد وبيَّنت بعض مضارِّه ومفاسده، فقد آل بصاحبه إلى القتل.

* إنها قد أظهرت أن الذكرى لا تنفع من أراد الله غوايته وإضلاله.

* إنها بينت خطورة القتل وأليم عقابه وأن القاتل **«أصبح من الخاسرين» «وأصبح من النادمين»**.

* إنه قد اتضح منها أن المعاصي تحجب عن المعرفة.

* إنها أظهرت أمرًا ألا وهو أن التقيَّ قد يُقتل،

ولكن مآله إلى خيرٍ إن شاء الله.

* ثم إنها أفادت أن المرء الصالح قد يُبتلى في أبنائه.

* وأيضًا قد أظهرت أن الرسل وما معهم من البينات لم ينفعوا من أراد الله غوايته بشيء، بل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

فنسأل الله أن يجعلنا من المنتفعين بالذكرى. ونسأله سبحانه أن يلحقنا بالصالحين.

وأن يحشرنا مع المنعم عليهم ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾.

وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو عبد الله مصطفى بن العدوي

فهرس



مَطابعُ دَارِ الصَّحِيفَة
٠١٠٦٦٩٥٧٤٣